

د. محمد عمارة

مُسَقِّبُنَا بَيْنَ

الْبَحْثِ وَالْإِسْلَامِ

وَالْحَدَاثَةِ الْغَرْبِيَّةِ

مكتبة الشرق الدولية



مستقبلنا بين

التجديد الإسلامي.. والحداثة الغربية

الطبعة الأولى  
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م



ش.الفتح - أبراج عثمان - أمام المرييلاند - روكسى-القاهرة

تليفون وفاكس، ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com >

د. محمد عمارة

مستقبلنا  
التجديد  
الجدد  
بوين  
الإسلامي  
الغربية

مكتبة الشروق الدولية



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

فى لقاء مع عدد من المثقفين الأندونيسيين - ذوى التوجهات الإسلامية - وأثناء استعراض واقع الفكر الإسلامى المعاصر . . حدثتهم عن تمايز تيارات الفكر فى عالم الإسلام، وتوزعها - على وجه الإجمال - إلى:

أولاً: تيار الجمود والتقليد لتراثنا الفكرى، وعلى الأخص منه تراث عصر التراجع الحضارى لأمتنا وحضارتنا . . ذلك التيار الذى ينظر، فقط، إلى الخلف! . . ويقف عند ظواهر النصوص، مغفلاً المقاصد التى تغياها الشارع من وراء هذه النصوص . . بل ويتخير من النصوص «النصوص الوسيطة»، بدلاً من «النصوص الأولى»، المقدسة والمعصومة - غافلين عن معنى «النص» فى علم أصول الفقه، وهو الذى لا ينطبق على كل «عبارة»، وإنما يقتصر على ما هو قطعى الثبوت وقطعى الدلالة، الذى لا مجال فيه لأى تأويل.

ولذلك كله، فإن هذا التيار - تيار الجمود والتقليد - يخاصم النظر العقلى فى حكم وعلل الأحكام التى جاءت بها النصوص . . مع إهمال فقه الواقع المتغير، والذى يتطلب - فى الفروع - أحكاماً جديدة، تواكب المتغيرات، وتستجيب للمصالح الشرعية المعبرة التى تفرزها هذه المتغيرات.

ثانياً: تيار التغريب والحداثة الغربية، ذلك الذى انطلق وينطلق من المرجعية الفلسفية للحضارة الغربية، معتمداً مناهج النظر «الوضعية - العلمانية» - وأحياناً المادية - التى تعاملت بها تلك الحضارة مع الدين وحقائقه وعوالمه وعلومه ومعارفه، فنظرت إلى الدين وموارثه باعتبارها «فكراً» غير علمى، عبر عن مرحلة من مراحل تطور «العقل الإنسانى»، هى مرحلة «طفولة» هذا العقل . . التى تلتها ونسختها «مرحلة الميثافيزيقا» . . والتى تلتها - هى الأخرى - ونسختها «المرحلة

الوضعية»، التى جعلت الكون المادى والواقع الدنيوى فقط - وليس الغيب - هو مصدر المعرفة الحقة والعلم الحقيقى، كما جعلت «العقل» و«التجربة» وحدهما - دون «النقل» و«الوجدان» - الطرق المعتمدة والمأمونة لتحصيل هذه المعرفة.. فكانت «القطيعة المعرفية» مع الموروث، وبالذات الموروث الدينى، تلك التى تميزت بها ثقافة الحداثة الغربية، والحداثة الثقافية، عندما عزلت علمانياتها السماء عن الأرض، بدعى أن «العالم مكتف بذاته»، وأن «الإنسان مكتف بذاته»، وأن تدبير هذه الحياة الدنيا إنما يتم بالأسباب المادية والملكات الإنسانية المودعة فى ظواهرها وعوالمها، دونما حاجة إلى مدبر مفارق ومتعال من وراء الطبيعة.. حتى لقد جعلت هذه الثقافة الحداثية - التى تمحورت حول الإنسان، دون الله - جعلت من هذا الإنسان «كائنًا طبيعيًا»، و«سيدًا للكون»، وليس ذلك المخلوق الربانى، الذى نفخ الله فيه من روحه، وجعله خليفة له.. أى سيدًا فى الكون، وليس سيد الكون، وإنما عبدًا لسيد الكون.

ذلك هو تيار التغريب، والحداثة الغربية، الذى نظر أهله، فقط، إلى الغرب فقط، فقلدوه وجمدوا على مقولات ثقافته وفلسفاته.. كما نظر أهل الجمود التراثى، فقط، إلى الماضى، فقلدوا مقولات سلف عصر تراجعنا الحضارى، وجمدوا عند ظواهر تصوصها.

وثالثًا: تيار الإحياء والتجديد.. الإحياء لأصول الإسلام وثوابته، بالعودة إلى منابع الجوهريّة والنقيّة لهذا الدين الحنيف، والنظر فيها بعقل معاصر، يفقه أحكامها، كما يفقه الواقع الذى يعيش فيه، عاقدًا القرآن بين «فقه الواقع» و«فقه الأحكام» ليصل إلى التجديد فى الفروع - أى الفقه، الذى هو علم الفروع - مبدعًا الأحكام الفقهيّة الجديدة التى تستجيب للمصالح الشرعية المعتبرة، التى طرحتها وتطرحها مستجدات الواقع الجديد والمعيش.

ففى هذا التيار - الإحيائى والتجديدى - تتوازن «الثوابت» - الدائمة الثبات، والضامنة دوام إسلامية النسق الفكرى على امتداد الزمان والمكان - مع «التجديد» فى الفروع التى تطرحها متغيرات الواقع ومستجداته.. الأمر الذى ينفى القطيعة - قطيعة «الجديد والتجديد» - مع «الثوابت والثبات».. كما ينفى «الجمود والتقليد».



الذى يحدث فراغًا فكريًا، سرعان ما تملؤه الفكرية الحداثية الغربية، التى مثلت - منذ نشأتها فى عصر النهضة الأوروبية - قطيعة معرفية مع الموروث الدينى على وجه الخصوص .

\*\*\*

لقد دار حديثى مع المثقفين الأندونيسيين، حول هذا التشخيص لتيارات الفكر فى عالم الإسلام ..

وأحسست أن كلامى كان واضحًا . . وكان مقبولاً . . اللهم إلا عند ذكر مصطلح «التجديد» أو الإشارة إلى نماذج العلماء المجددين، فإن النظرات والإيماءات كانت تشي بأن هناك لبسًا يحول دون وضوح المقصود من وراء هذا «التجديد» .

وأخيرًا، أدركت أن هناك خلطًا فى المفاهيم والمضامين - مفاهيم ومضامين المصطلحات - حدث لأن عددًا من «الحداثيين» . المتغربين عمدوا إلى «تسويق بضاعتهم» الوضعية العلمانية - وأحيانًا المادية - تحت عنوان وراية ومصطلح «التجديد» حتى أصبح هذا المصطلح «سوء السمعة»! عند هؤلاء المثقفين الأندونيسيين . الأمر الذى أوجب ويستوجب تحديد مفاهيم ومضامين المصطلحات . . . ليميز «التجديد» كسبيل إسلامى أصيل فى التطور بعالم الأفكار . . عن «الحداثة» بمعناها الغربى - تلك التى تعنى القطيعة المعرفية مع ثوابت الدين وأصوله . . فهى نسخ للدين - بالجهود والإنكار . . أو بالتأويل الذى يفرغه من محتواه - بينما يعنى «التجديد»: البعث والإحياء لثوابت الدين وأصوله، مع التطور فى فقه الفروع، مواكبة لمستجدات الواقع المعيش، وحفاظًا - فى ذات الوقت - على صلاح وصلاحية الثوابت والأصول الدينية لكل زمان ومكان . . فهما «الحداثة» و«التجديد» نقيضان فى نظرة كل منهما إلى ثوابت الدين وأصوله . . وأيضًا فى النتائج التى يثمرها كل منهما إزاء الدين .

\*\*\*

إن للإسلام فلسفته الفريدة فى النظر إلى الكون . . وإلى مكانة الإنسان فى هذا الوجود . . وإلى نطاق حرية الإنسان فى هذه الحياة . . وهى فلسفة لا وجه للتوفيق

بينها وبين الفلسفة الوضعية التي قامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة، وثقافتها الحداثية المعاصرة.

فالإنسان - في الرؤية الإسلامية - مخلوق لله، سبحانه وتعالى . . وفي هذا قد تتفق الرؤية الإسلامية مع الوضعية الغربية المؤمنة . لكنها تعود فتفترق عنها عندما تقرر أن الله، سبحانه وتعالى، ليس مجرد خالق فقط، وإنما هو الخالق والراعى والهادى والمدير لهذا الوجود، وهذا الإنسان.

فالله، في التراث الأرسطى الإغريقى، هو مجرد خالق للعالم والوجود، خلقه ثم دفعه للحركة فتحرك، ولا يزال يتحرك بواسطة الأسباب الذاتية المودعة في عوالمه وقواه، دونما حاجة إلى تدبير إلهى أو رعاية ربانية، أو شريعة دينية يأتى بها الوحي، من وراء الطبيعة والوجود المادى، إلى الأنبياء والمرسلين.

وهذه الرؤية الأرسطية هي ذاتها الرؤية الوثنية الجاهلية . . فلقد كان الوثنيون - في الجاهلية - يؤمنون بالله خالقاً لهذا الوجود ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] . .

فهم لا ينكرون الخلق والخالق لهذا الوجود . . وإنما استحققوا أوصاف ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم وقفوا بنطاق عمل الذات الإلهية عند «الخلق» فقط، وجعلوا «التدبير» للأصنام والأوثان والوسائط التي أشركوها مع الله، يلجأون إليها إذا أرادوا الحرب أو السلم . . السفر أو القرار . . الفعل أو الترك . . الإقدام أو الإحجام . . الزواج أو الطلاق . . إلى غير ذلك من التدابير لشئون الحياة .

وتلك بعينها، هي الفلسفة الوضعية الغربية، عندما تؤمن بالخلق والخالق . . فهى - بالعلمانية - قد قررت أن العالم مكتف بذاته، وأن الإنسان مكتف بذاته . . فالعالم تدبره الأسباب الذاتية والمادية المودعة في عوالمه ومجتمعاته وقواه



وظواهره . . والإنسان هو سيد الكون . . ولا سلطان على العقل الإنسانى إلا للعقل الإنسانى وحده . . و«العقد الاجتماعى» البشرى يقرره الاختيار الإنسانى وحده، والحرية الإنسانية التى لا سقف عليها ولا إطار يحكمها من وحي أو شريعة تأتى بها السماء .

وفى مقابل هذه الرؤية الوضعية - التى هى بعث وإحياء للتصور الأرسطى، وللتصورات الوثنية الجاهلية - تأتى فريدة الرؤية الإسلامية، التى لا تجعل الله مجرد خالق . . وإنما هو الخالق والراعى والهادى والمدير لكل عوالم المخلوقات، والتى ترى الإنسان خليفة لله، خلقه الله ونفخ فيه من روحه، واستخلفه لعمارة الأرض، وسخر له كل ما فى الوجود، وحباه القدرة والحرية والاختيار والاستطاعة والتمكين . . لكن فى حدود ثوابت عقد وعهد الاستخلاف - عقد وعهد الإنابة والتوكيل - فهذا الإنسان - وفق عبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] - «هو عبد لله وحده، وسيد لكل شىء بعده»! هو خليفة ونائب ووكيل لسيد الكون، سبحانه وتعالى، وليس هو سيد الكون . . وهو الحامل لأمانة عمران هذه الأرض . . وهو فى تدبير هذا العمران، مصدر السلطة والسلطان، لكن فى إطار الحلال والحرام الدينى، أى فى إطار الثوابت الدينية - عقيدة وشريعة وقيما - فهذا الإنسان - فى هذه الرؤية الإسلامية - ليس ذلك «الحقير . . الفانى . . المهمش . . المجبر»، الذى لا حول له ولا طول . . وأيضاً، ليس هو سيد الكون، المكتفى بذاته عن توجيهات الدين، وتدبير السماء، ووحى الله، سبحانه وتعالى . . وإنما هو - بهذه الرؤية الإسلامية - الرؤية الفلسفية الوسطية - سلطان الأرض، المحكومة سلطاته بسلطان السماء؛ لأنه خليفة فى الكون، وليس سيد هذا الكون . . لأن سيد الكون - الله، سبحانه وتعالى - ليس مجرد خالق، وإنما هو الخالق والمدير لكل عوالم المخلوقات .

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤) .

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ (٤٩) ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾

[طه: ٤٩، ٥٠]

﴿إِنْ رِبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ



ما من شافع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴿ [يونس: ١٣].

﴿ الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴾ [المنكوت: ٦٢].

فالرؤية «الوضعية - العلمانية» الغربية، التي تريد تحرير الاجتماع الإنساني من ثوابت التدبير للشرعية الإلهية، فتقول - مثلاً - : «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين» أو تحرير الوطن من الدين ومن العبودية لله، ومن الالتزام بحاكمية الشرعية الإلهية، يدعوى «أن الدين لله، والوطن للجميع». . هذه الرؤية التي تعزل السماء عن الأرض، وتخصر الفعل الإلهي في نطاق دون نطاق، هي التعبير الحديث والمعاصر عن الرؤية الوثنية الجاهلية، التي سقها القرآن الكريم وسقها قسمتها هذه عندما قال: ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

بينما الرؤية الإسلامية تجعل الدين لله. . أي خالصاً له، دون طغيان الطواغيت والعبودية لهم. . وتجعل الوطن أيضاً لله، سخره الله بما فيه من إمكانات للإنسان - الأمة. . المواطنين - المستخلفين في عمرانه وتدبيره وفق الشرعية الإلهية - التي هي بنود عقد وعهد الاستخلاف - فالكل - الوطن والمواطنون - في الحقيقة وواقع الأمر - لله، سبحانه وتعالى، وفق المنطق والمبدأ القرآني ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

تلك هي المنطلقات المختلفة لكل من الرؤية الإسلامية المؤمنة للكون. . ولمكانة الإنسان في هذا الوجود. . ولنطاق الحرية الإنسانية في هذه الحياة - وهي الرؤية المؤسسة على فلسفة الخلافة والاستخلاف - . . وللرؤية «الوضعية الغربية» حتى المؤمنة منها - والتي مثلت وتمثل الجذر الفلسفي الذي يفتح الباب أمام الحداثة الغربية لإنكار الثوابت الدينية، ونسخها، وإقامة القطيعة المعرفية معها، بشكل مباشر وجاد، أو بالتأويل الذي يفرغ الدين ومصطلحاته من محتواه. . بينما تحول الرؤية الإسلامية دون فتح هذا الباب، مكتفية - لتلبية احتياجات التطور،

ومتغيرات الواقع، ومستجدات الزمان والمكان والمصالح - بطريق وآليات «التجديد» الذي يحيى الثوابت، ويعيد الحيوية إلى الأصول، مع التغيير والتجديد والتطوير والإبداع في الفروع التي تراكب مستجدات الواقع والمصالح والحياة.

فإذا كانت الحداثة الغربية - انطلاقاً من الفلسفة الوضعية، التي حررت الدنيا من الدين - قد أقامت قطيعة معرفية مع الموروث الديني:

وإذا كان الجمود والتقليد - في فكرنا الإسلامي - ينكر التجديد، أو يستريب فيه، بدعوى أن الإسلام قد اكتمل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (آل عمران: 3) والمكتمل - بنظرهم - لا يحتاج إلى تجديد . فإن تحديد المفاهيم . . . وتحرير مضامين المصطلحات . . . هو الكفيل بتميز «التجديد» عن «الحداثة» . . . وينتفى التناقض الموهوم بين «التجديد» وبين «اكتمال الدين» .





## التجديد هو التحقيق لا اكتمال الدين

إن «اكتمال الدين» . . . و«تجديده» . . . وبتعبير آخر «السلفية» . . . و«التجديد» . . . مصطلحان يرمزان - في عرف بعض الباحثين - إلى نسقين متقابلين، بل ومتناقضين، في الرؤية والمنهج والتفكير والثمرات . . . والذين ينظرون إلى فكرنا الإسلامي بمناهج الفكر الغربي لا يتصورون علاقة وفاق أو اتفاق أو تكامل بين «اكتمال الدين» وبين «تجديده» أو بين «السلفية» وبين «التجديد» . . . ففي الفكر الغربي، كانت «السلفية» - الأرثوذكسية - هي الوقوف عند الأصول فقط - وهي أصول لا علمية ولا عقلانية - حتى لقد سميت هذه «السلفية» هناك بـ «الأصولية» بمعناها الغربي، أي الجمود المنافي للتقدم وللعقل وللعلم ولما كية مستجدات الزمان والمكان . . . كما كانت الحداثة هي رد الفعل الغربي للسلفية والأصولية الغربية، التي مثلت ثورة أتت على هذه الأصولية الأرثوذكسية من القواعد والأساس .

لكن منهجنا الإسلامي، بوسطيته الجامعة، لم يعرف ولن يعرف هذه الثنائية الانشطارية التي تقسم التقابل والتضاد بين «اكتمال الدين» . . . و«السلفية» وبين «الاجتهاد فيه» . . . والتجديد له .

إننا نتلو في آيات القرآن الكريم قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]

ونقرأ في السنة النبوية الشريفة، قول رسول الله ﷺ: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود، فلا نشعر - بالمنهج الإسلامي . . . ووسطيته الجامعة - أن هناك تناقضاً بين اكتمال الدين، بتمام الوحي وختام النبوة والرسالة، وبين التجديد الدائم أبداً لهذا الدين، الذي اكتمل بختم الوحي وتمام القرآن الكريم.

ذلك أن الدين : عقيدة وشرعية . . والعقيدة فيه هي : الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر . . والشرعية فيه هي : كل ما ينهجه المسلم ويسلكه ويقيم به من عبادات . . وقيم . . ومعاملات . . كى يعتقد هذه العقيدة ويتدين بها . . ولكل من العقيدة والشرعية أصول وقواعد وأركان، وهي جميعها قد اكتملت بشمام الوحي الذى اكتمل به الدين . وبقائمة الرسول ﷺ . وصحابته، رضى الله عنهم . لهذا الدين .

لكن الإنسان المسلم، بحكم خلافته لله، سبحانه وتعالى، فى عمارة الأرض، وسياسة المجتمع، وتنمية العمران، لا بد له - وهو يتجزأ مهمة خلافته هذه، ويؤدى أمانتها - من إقامة أبنية أخرى يبدعها هو فوق هذه الأصول والقواعد والأركان . فالإسلام - مثلاً - قد بنى على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى - فهذه الأركان الخمسة هي القواعد التى بنى عليها الإسلام، وليست هى كل بناء الإسلام، وإنما هى الفروع التى تعلوها أبنية الفروع . . وهذه الأبنية - الفروع للأصول وخاصة فى المعاملات والتى تتغير وتتجدد وتتطور تبعاً للمصلحة ووفقاً لمقتضيات الزمان والمكان - إذا كانت متسقة مع مقاصد الأصول وغايات القواعد وحدود الأركان - فهى «تجديد» فى نطاق وآفاق وروح وتأثيرات هذه الأصول والقواعد والأركان . فالأصول الثوابت قد اكتملت باكمال الدين، بينما آفاقها وأثارها والفروع الباسقة منها دائمة النسب والتغير والتطور، شاهدة على دوام التجديد، وعلى العلاقة بين هذا التجديد وبين الثوابت المكتملة من الأصول والقواعد والأركان .

ولوضوح هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامى، كان اتفاق مذاهب الفكر الإسلامى على امتناع الاجتهاد فى الأصول، ففيها وعليها قامت وحدة الأمة - انتهى هى فريضة دينية . وأصل دينى - منذ اكتمال الدين بختم الرسالة . . وكان اتفاق هذه المذاهب، كذلك، على أن الاجتهاد الإسلامى مجاله «الفروع» . فهو، عندئذ، يمد - بالتجديد - فروع الأصول إلى المستجدات من الوقائع والمصالح .

ويُحلُّ أحكاماً جديدة - أي فروعاً جديدة - محل أحكام تجاوزها الواقع الذي تغير والعرف الذي تطور والعادات التي تبدلت والمصالح التي استجدت، عندما تكون هذه الأحكام ذات علل غائبة، تدور معها وجوداً وعدمًا. بل إن هذا الاجتهاد والتجديد إنما ينهض بدوره الدائم في الكشف عن جوهر الأصول والقواعد والأركان وتجليتها إذا علاها غبار الابتداع فطمس معالمها بالزيادة أو الانتقاص أو التحريف أو فاسد التأويل. . . ففي الأصول والقواعد أيضاً تجديد - بهذا المعنى - وهو الذي جعل حديث رسول الله ﷺ يتحدث عن «تجديد الدين»، وليس فقط تجديد «فكر المتدينين بالدين». . . وهو الذي جعل رسول الله ﷺ، يثبته على أن للإيمان - وهو جوهر الدين - تجديداً. . . وذلك عندما قال لصحابته وأمه:

«جددوا إيمانكم».

- قيل: يا رسول الله، وكيف تجدد إيماننا؟.

.. قال: «أكثرُوا من قول لا إله إلا الله» رَوَاهُ الإمام أحمد.

لأن كلمة التوحيد هي الثورة التي تكشف عن لقاء هذا التوحيد، عندما تزيل عن أصوله وجوهره غبار وآثار العبودية والخضوع للطواغيت. . . وبذلك يتجدد الإيمان، ويعود التوحيد إلى مضاء التحرير للإنسان من عبودية هذه الطواغيت. . . فيكون إفراد الله، سبحانه وتعالى، بالعبودية هو قمة التحرير لملكات وطاقات الإنسان!.

فليس «التجديد»، إذن، نقيضاً لـ «اكتمال الدين وثباته»، بل إنه السبيل لامتداد تأثيرات الدين الكامل وثوابته وأصوله إلى الميادين الجديدة، والأمور المستحدثة. والضمان لبقاء «الأصول» صالحة دائمة لكل زمان ومكان. . . أي أنه هو الضمان لبقاء الرسالة الخاتمة خالدة، ولولا هذه الفروع الجديدة إلى التجديد من المحدثات، وإقامته الخيوط الجديدة بين الأصول الثابتة وبين الجديد الذي يطرحه تطور الحياة. ولولا تجديده الدائم الذي يحلج الوجه الحقيقي النقي لأصول الدين وثوابته. . . لولا دور «التجديد» هذا في حياة الإسلام ومسيرته لتسخت وطُغست هذه الأصول. إما بتجاوز الحياة الممتدة لفضل الفروع الأولى والقديمة، فيعزى هذا الامتداد الجديد من ظلال الإسلام. . . أو بتشوية البدع، عندما تتراكم، لجوهر هذه الأصول.



إن الله، سبحانه وتعالى، لما تعهد بحفظ القرآن الكريم وصيائه عن التحريف والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر ٩] يسّر للمسلمين أسباب ذلك، فكان جمعه... وتدوينه... وخدمته بعلوم القرآن... وكذلك الحال مع الدين الخاتم والرسالة العامة، التي عنى ختم الرسالات السماوية بها إرادة الله دوام بقائها وعطائها إلى أن يعرض البشر على بارئهم يوم الدين... فكان السبيل إلى دوام بقاء هذا الدين واستمرار عطائه وصلاحيته لكل زمان ومكان هو إعمال سنة التجديد للدين والفكر الديني... وهي «سنة» لا تبدل لها ولا تحوّل، أي أنها قانسون من القوانين الفاعلة والعاملة دائماً وأبداً في النسق الفكري الإسلامي، وليست مجرد «مباح»، أو مجرد حق من حقوق العقل الإسلامي!

هكذا جمعت الوسطية الإسلامية، وتجمع بين «اكتمال الدين» وبين «التجديده»... وربطت بين «السلفية» بمعنى العودة في الدين إلى أصوله ومنابعه الجوهرية والنقية - وبين «التجديد» في الفروع وفي المتغيرات.

ونحن إذا نظرنا إلى ذاتنا الحضارية، بمنهجنا الإسلامي، فسنعجد أن في «سلفيتنا» هذه اجتهاداً يميز بين الجوهر - جوهر الوضع الإلهي للدين - وبين الإضافات والنواقص والبدع التي طرأت وعدت على جوهره وأصوله، وسنعجد أن في «اجتهادنا» - الذي هو استنباط الأحكام الجديدة للواقع الجديد - سنجد أن في هذا الاجتهاد: سلفية، تستحضر الأصول والمبادئ والمقاصد، لتري الواقع الجديد في ضوءها، ونستخرج له منها الأحكام الجديدة... ففي السلفية تجديد... وفي التجديد سلفية... وكل المجددين - في فسيرتنا الحضارية - كانوا سلفيين في الأصول، ومجددين في الفروع.

إن شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] الذي هو طليعة من يرد على الذهن والخطر إذا ذكر مصطلح «السلفية»، لم يكن مجرد مجتهد، وإنما كان واحداً من أبرز الذين سعوا إلى إبداع مشروع فكري لتجديد الدين الإسلامي كي تتجدد به دنيا المسلمين<sup>(١)</sup>... وإن أبرز تلاميذ ابن تيمية، وهو العلامة ابن القيم [٦٩١ - ٧٥١ هـ - ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م]، هو الذي عقد - في كتابه [إعلام الموقعين] فصلاً نفيساً جعل عنوانه «فصل في تغير الفتوى واختلافها

بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد... ذلك «لأن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها...»<sup>(١)</sup>.

فالثابت في الشريعة هو فلسفة التشريع، والقواعد والنظريات. والأحكام التي قننت للشوايت - من مثل القيم والحدود - أما التفاصيل والفروع والجزئيات - التي هي موضوع الفقه - فإن باب الاجتهاد والتجديد مفتوح فيها أمام العقل الفقهى، كي يبدع الجديد من الأحكام، التي تواكب متغيرات الواقع ومستجدات الزمان والمكان والأحوال والنيات والعادات... كما قال ويقول الأئمة «السلفيون - المجددون».

هكذا تحددت... وتحررت... ووضحت المفاهيم... مفاهيم «التجديد» و«الحداثة»... وانتفتت شبهات التناقض بين اكتمال الدين وبين تجديده... وأيضاً بين سلفية العودة إلى الأصول والشوايت وبين التجديد في الفتاوى والأحكام.

\*\*\*

## • الهوامش

- (١) انظر: أبو الأعلى المودودي [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٧٣ - ٧٩ طبعة بيروت - مؤسسة الرسالة - سنة ١٣٩٥ هـ سنة ١٩٧٥ م.
- (٢) [إعلام الموقعين] ج ٣ ص ٣ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

\*\*\*





## من معالم المشروع الحضارى لمدرسة الإحياء والتجديد

وإذا كانت أبرز وأعمق وأوسع مدارس الإحياء والتجديد فى النهضة الإسلامية الحديثة هى تلك المدرسة التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] . . . والذى كان الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] العقل الذى هندس معالم مشروعاتها التجديدية فى العديد من الميادين . . . فلقد تبلور فى تراث هذه المدرسة ما يمكن أن نسميه معالم أساسية لمشروع نهضوى إسلامى ، هو وسط متميز عن مقولات أهل الجمود والتقليد . وعن مقولات أهل الحداثة والتغريب . : هو مشروع أصولى ، تابع من الأصول الإسلامية ، وحديث ومعاصر ، عندما رأى هذه الأصول بعقل معاصر ، وفى ضوء مستجدات الواقع العصرى المعيش . . . وهذا المشروع الحضارى «الأصولى - التجديدى» ، الذى حاولت به وفيه هذه المدرسة تجديد الدين الإسلامى لتجدد به دنيا المسلمين ، يمكن أن نتخير منه أصولاً عشرة ، كمعالم للنهضة والإصلاح . وهى :

### ١ . نقد ورفض الجمود والتقليد ،

سواء أكان هذا التقليد تقليداً للسلف ، وجموداً على تراثهم . . . لأن السلفية الجمود على ظواهر النصوص - كما يقول الإمام محمد عبده - : «أضيق عطفاً ، وأخرج صدراً من المقلدين ، وهى وإن أنكرت كثيراً من البدع ، وتحت عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه ، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيّد به ، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولاجلها مُنحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدينة أحياء»<sup>١</sup>

ونفس الرفض والنقد - بل أكثر - لتقليد الغرب، وللجمود على الثقافة الحديثة للتغريب. . . ذلك لأن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى - [كما يقول الأفغانى] - ليسوا أرباب تلك العلوم التى ينقلونها. . . والتمدن الغربى هو، فى الحقيقة، تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى. . . ولقد علمتنا التجارب، أن المقلدين من كل أمة، المتحليين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها. . . وطلّاع جيوش الغالبين وأرباب الغارات، يسعدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يشتون أقدامهم. . . فتقليد الأجانب يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بهم، والاستكانة لهم، والرضا بسننهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام، التى من شأنها رفع راية السلطة والغلب، إلى صبغة خمول وضعف واستئناس لحكم الأجنبي<sup>(٣١)</sup>.

## ٢. وثانى هذه الأصول هو التجديد،

الذى يؤدى إلى :

- تحرير الفكر من قيد التقليد.
- وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف.
- والرجوع فى كسب معارف الدين إلى ينابيعها الأولى.
- واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشرى.
- وإصلاح أساليب اللغة العربية.
- والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة..

وهو تجديد - كما يقول الإمام محمد عبده - «خالفتُ فيه وفى الدعوة إليه رأى طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم» - [من أهل الجمود والتقليد] - وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم - [من أهل الحداثة والتغريب] -<sup>(٣٢)</sup>.

## ٣. وثالث هذه الأصول هو الإصلاح بالإسلام،

وليس بالنموذج الحضارى الغربى الوضعى والعلمانى، الذى اقترح عالم الإسلام فى ركاب الغزوة الأوروبية الحديثة. . . «الآن الدين [كما يقول الأفغانى] هو

قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.. وهو السبب المشرود  
 لسعادة الإنسان.. وإناء معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا على قواعد ديننا  
 وقرآننا فلا خير لنا فيه.. ولقد كان الخلل والهبوط الذي اعتري حياتنا، من طرح  
 أصول هذا الدين، ونبذها ظهرياً.. والعلاج إنما يكون برجوع الأمة إلى قواعد دينها،  
 والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته.. ولا سبيل إلى اليأس والقنوط، فإن جرائم  
 الدين متأصلة في النفوس.. والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من  
 محبته. فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفسها في جميع  
 الأرواح لأقرب وقت.. فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقّة نصب أعينهم، فلا  
 يعجزهم أن يبلغوا منتهى الكمال الإنساني. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى  
 هذه، فقد ركب بها شططاً.. ولن يزيدها إلا نحساً، ولن يكسبها إلا تعساً»<sup>(١)</sup>

وبعبارة الإمام محمد عبده: «لقد أشربت أنفس الأمة الانقياد إلى الدين. حتى  
 صار طبعاً فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير  
 صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعب، ويخفق سعيد.. وأكبر شاهد  
 على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية، من عهد محمد علي إلى  
 اليوم. فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فساداً - وإن قيل إن لهم شيئاً من المعلومات -  
 فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في  
 نفوسهم.

إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم  
 من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد،  
 ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً.. وإذا كان الدين  
 كافلاً بتهديب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من  
 أبوابها، ولأهلها من الثقة فيد ما ليس لهم في غيره، وهو حاضراً لديهم، والعناء في  
 إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟»<sup>(٢)</sup>

#### ٤- ورابع هذه الأصول هو الوسطية الإسلامية،

التي برئت من الغلو والإغراق في المادية.. أو في الروحانية.. وإذا كانت  
 المدنية الأوروبية - كما يقول الإمام محمد عبده - هي «مدنية الملك والسلطان،



مدينة الذهب والفضة، مدينة الفخفخة والبهرج، مدينة الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو «الجنه» عند قوم، و«البرا» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك.. فلقد ظهر الإسلام، لا روحياً مجرداً، ولا جسدياً جامداً، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك، أخذاً من كلا القبيلين بنصيب، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره، ولذلك سمي نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصوصاً اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التي برقى فيها البرابرة على سلم المدنية<sup>(٦٧)</sup>.

##### ٥- وخامس هذه الأصول هو العقلانية المؤمنة:

تلك التي جمعت وتجمع بين العقل والنقل.. بين الحكمة والشرعة.. فتقرأ النقل بالعقل، وتحكم العقل - وهو نسبي الإدراك - بالنقل - الذي هو العلم الإنهائي الكني والمطلق والمحيط - ذلك أن «العقل هو جوهر إنسانية الإنسان، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة.. وهو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته، والتصديق بالرسالة.. أما النقل فهو ينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة والعبادات<sup>(٦٨)</sup>.. والقرآن - وهو المعجز الخارق - دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، فهو معجزة عُرِضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. فتأخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل.. والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحاً، بغير فقه، فهو غير مؤمن؛ لأنه ليس المقصود من الإيمان أن يذل الإنسان للخير كما يذل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه.. والعاقِل لا يقلد عاقلاً مثله، فاجدر به أن لا يقلد جاهلاً دونه..»<sup>(٦٩)</sup>.

ومع هذا التألق لمقام العقل.. فإن هناك أموراً لا يستقل العقل بإدراكها، أو إدراك الحكمة من ورائها، ومن هنا كانت ضرورة استعانتها بالوحي «فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة، اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال.. وإذا قدرنا العقل البشري قدره، وجدنا غاية ما ينتهي إليه

كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني.. أما الوصول إلى كنهه حقيقة فمما لا تبلغه قوته.. ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجاً إلى معين يستعين به في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة..» (١٦)

#### ٦. وسادس هذه الأصول: الوعي بسنن الله الكونية،

تلك التي تحكم سائر عوالم المخلوقات، والتي تمثل قواعد علم الاجتماع الديني، في التقدم والتخلف.. في النهوض والانحطاط.. في الانتصارات والهزائم.. وفي التدافع بين الأمم والدعوات والحضارات.. وإن الإرشاد اللدني أن له في خلقه سنناً ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران ١٣٧) يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة، نستفيد ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه.. والعلم بسنن الله تعالى، من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دللنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها.. إن لله في الأمم والأكوان سنناً لا تبدل، وهي التي تسمى شرائع، أو نواميس، أو قوانين.. ونظام المجتمعات البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في المجتمع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل، فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع في الصالحين نسبة، أو اتصل بالمقربين سببه فمهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر، أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه..» (١٧)

#### ٧. وسابع هذه الأصول: أن الدولة - في الإسلام -

«مدنية - إسلامية.. لا كهنوتية ولا علمانية،

فلقد أتى الإسلام بالمبادئ والمرجعية.. أما النظم والمؤسسات والآليات، فجميعها بشرية مدنية متطورة، وهي إسلامية بقدر ما تحقق أو تقترب من تحقيق المثال الإسلامي والمرجعية الإسلامية.. وإذا كانت الدولة الكهنوتية قد عرفت الحكم بالحق بالإلهي، فكانت الدولة فيها نائبة عن السماء.. ولا وجود للأمة.. وإذا

كانت الدولة العلمانية تحكم باسم الشعب - ولا وجود فيها لشرعية السماء - فإن الدولة الإسلامية فيها: حاكمية الشريعة.. والأمة مستخلقة لتحقيق حاكمية الشريعة.. والدولة مستخلقة فيها عن الأمة.. فهي نموذج فريد في هذا الباب.. "وليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر. وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم. كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم. ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الفرنج "ثيوكراتيك" أي سلطان إلهي.. فأصل من أصول الإسلام قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها.. وكل سلطة تناولها القاضي، والمفتي، وشيخ الإسلام، هي سلطة مدنية، قدرها الشرع الإسلامي، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد، أو عبادته لربه. أو ينازعه في طريقة نظره.. ومع هذا.. فالإسلام دين وشرع.. لم يدع ما لتبصر لقبصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قبصر على ماله، ويأخذ على يده في عمله. فكان الإسلام! كمالاً للشخص، وألفة في البيت، ونظاماً للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه"<sup>(١١)</sup>.

#### ٨. والأصل الثامن من أصول هذا المشروع التجديدي هو الشورى،

أي مشاركة الأمة في صنع قرارات دولتها ومجتمعها.. "فلا بد من إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، وذلك بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين.. والقوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة.. وبذلك يشارك الأهالي بالحكم الدستوري الصحيح.. والأمة هي التي تملك حاكمها على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي، وتتوجه على هذا القسم، وتعلنه له: يبقى التاج على رأسه ما بقي هو محافظاً أميناً على صون الدستور، وأنه إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة، إما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس!"<sup>(١٢)</sup>.

#### ٩. وتاسع هذه الأصول هو العدالة الاجتماعية،

التي تحقق التكافل الاجتماعي بين الأمة كلها "قال إخاء الذي عقده المصطفى ﷺ، بين المهاجرين والأنصار. كان أشرف عمل تجلّى به قبول اشتراكية الإسلام



الوسطية - التي أشار إليها القرآن بأدلة كثيرة.. والمغايرة لاشتراكية الغرب، القائمة على التطرف وروح الانتقام من جور الحكام والأحكام - ذلك أن تنعم فريق من قوم، وشقاء فريق آخر، في محيط واحد، وبمناخ ليس بينها وبين مساعي الآخرين كبير تفاوت، مما لا يتم به نظام الاجتماع...»<sup>(١٣٦)</sup>.

والله، سبحانه وتعالى، عندما أضاف مصطلح «المال» في القرآن الكريم إلى ضمير «الفرد» في سبع آيات، وإلى ضمير «الجمع» في سبع وأربعين آية، أراد أن يبين بذلك «على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم...»<sup>(١٣٧)</sup>.

#### ١٠- وعاشر هذه الأصول هو إنصاف المرأة،

لششارك الرجل في القيام بفرائض وتكاليف العمل العام - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ويدون هذا الإنصاف لا قيام للأسرة، التي هي اللبنة الأولى والأساسية في بناء الأمة... «فالأمة تتكون من البيوت [العائلات]، فصلاحها صلاحها. ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة.. والرجل والمرأة يتماثلان في الحقوق والأعمال، كما أنهما يتماثلان في الذات والشعور والعقل.. والآية القرآنية ﴿وَلَيْنَ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ هي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق، إلا أمراً واحداً عبّر عنه بقوله: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَ دَرَجَةً﴾ (نساء: ٣٤). وهذا الأمر - القوامة - يوجب على المرأة شيئاً وعلى الرجل أشياء. ذلك أن الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس، يرجع إلى رأيه في الخلاف؛ كي لا تنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام.. والرئاسة هنا إرشاد ومراقبة وملاحظة، وليست قهراً ولا سلباً للإرادة.. فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن.. وكلاهما بشر تام، له عقل يتشكر في مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذاه عبداً يستذله ويستخدمه في مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيده إلا باحترام كل من الزوجين للآخر والقيام

بحقوقه.. أما الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة في بيوتهم، فإنهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم!...»<sup>(١٥)</sup>.

\*\*\*

تلك نماذج من معالم المشروع النهضوى، التى أثمرتها إبداعات الإحياء والتجديد.. تلك التى جسدت منهاج التجديد الإسلامى فى استصحاب الثوابت والقواعد والأصول.. وجسدت فى فقه الواقع، فجاءت هذه المعالم الإسلامية تماماً.. وفى ذات الوقت مستجيبة لتغيرات ومستجدات ومصالح الواقع المعيش.

\*\*\*

### • الهوامش

- (١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ٣١٤، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م.
- (٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٩٥ - ١٩٧، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
- (٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٢ ص ٣١٨.
- (٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٣١، ١٧٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ١٦١، ١٩٧، ١٩٩.
- (٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ٩ - ١٠، ٢٣١.
- (٦) المصدر السابق: ج٣ ص ٢٠٥، ٢٤٢.
- (٧) المصدر السابق: ج٥ ص ٢٢٨، ج٣ ص ٢٩٨، ٣٢٥.
- (٨) المصدر السابق: ج٣ ص ٣٥٦، ٣٥٧، ١٥١، ٢٧٩ - ٢٨١، ج٤ ص ٤١٤.
- (٩) المصدر السابق: ج٣ ص ٤١٢، ٤٢٦، ٣٧٩، ٣٩٧.
- (١٠) المصدر السابق: ج٥ ص ٩٤، ٩٥، ج٣ ص ٢٨٤.
- (١١) المصدر السابق: ج٣ ص ٢٣٣، ٢٨٨، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦، ج٤ ص ٤١٢.
- (١٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٣، ٤٧٧، ٤٧٩.
- (١٣) المصدر السابق ص ٤١٤ - ٤١٧.
- (١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٥ ص ١٩٤.
- (١٥) المصدر السابق: ج٤ ص ٦٠٦ - ٦١١.

\*\*\*

## نماذج حدائثية للقطيعة مع الموروث

وإذا كانت هذه الأصول الفكرية العشرة، هي نماذج للتجديد، الذي يستصحب الثوابت الإسلامية، ويطور في المتغيرات، : فهل في واقعنا الفكرى المعاصر نماذج لحدائثية القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام وأصوله وقواعده؟؟ .

إن الإجابة - الصريحة - هي نعم - مع الأنيب الشديد! فلقد نجح التغريب والاستلاب الحضارى فى جعل المرجعية الوضعية تراحم المرجعية الإسلامية فى فضائنا الفكرى. . وانطلق نفر من المتغربين، الذين ضربت عقولهم وصيغت رؤاهم وفلسفاتهم وفق المناهج الوضعية الغربية، من هذه المرجعية الوافدة، فبشروا بالملقولات والرقوى الحدائثية - التى قلدوا فيها «سلفهم الغربى» من فلاسفة التنوير الغربى - متحدثين ثوابت الأمة، وخارجين على نسقها الإيمانى، بإقامة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام.

وحتى لا ندع مجالاً «للاستنتاج»، أو «التأويل» أو «الادعاءات»، ونحن نقدم نماذج لهذه الحدائث «الغربية». . فإننا ستقدم نصوص أصحابها، كما كتبوها ونشروها، تاركين الحكم عليها وعلى موقفها من ثوابت الإسلام للقطرة السليمة التى نقرأ وتتأمل هذه النصوص. . ولنتيح - أيضاً - فرصة النظرة المقارنة بين نصوص حدائثية القطيعة مع الموروث هذه، وبين نصوص التجديد الإسلامى، التى سبق وأوردناها لرواد مدرسة الإحياء والتجديد.

● إن الحدائث الغربية - التى هى ثقافة التنوير الغربى الوضعى - هى التى أعلنت وتعلن - بصريح العبارة - أنها قد أقامت وتقيم قطيعة معرفية كبرى مع الدين. . وأنها حتى إذا استخدمت مصطلحات القاموس الدينى، فإنها تجرد هذه المصطلحات وتفرغها من مضامينها الدينية والإيمانية. . أى أنها، حتى عندما تستخدم لغة



الدين، فإنها تفرغ هذا الدين من الدين، وذلك بتأويل الدين لأتسسته، وتحويله إلى نسق فكري إنساني، لا علاقة له بالغيب والسمااء!!.. تعلن الحداثة الغربية ذلك، فتقول - بلسان أهلها والمدافعين عنها -:

«إنه بعد أن كان المسيحي حريصاً على طاعة الله وكتابه، لم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله.. فأيديولوجية التنوير قد أقامت القطيعة الإستمولوجية [المعرفية] الكبرى، التي تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكويني [١٢٢٥ - ١٢٧٤م] وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فمنذ الآن فصاعداً راح الأمل بملكة الله ينزاح؛ لكي يخلي المكان لتقدم عصر العقل وهيمته.. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة.. لقد أصبح الإنسان وحده مقياساً للإنسان.. وأصبح حكم الله خاضعاً لحكم الوعي البشري. الذي يطلق الحكم الأخير باسم الحرية.. ويمكن للمعجم اللاهوتي القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يؤهم أحداً، فتفس الكلمات لم يعد لها نفس المعاني!..»

● وعلى هذا الدرب - درب القطيعة المعرفية الكبرى مع ثوابت الإسلام وأصوله - سار نفر من الخداثيين العرب - حذو النعل بالنعل - فرأينا أجدهم يذهب على درب تأويل الإسلام تأويلاً يفرغ الدين من الدين، فيقول - عن الذات الإلهية - التي أجمع المسلمون على تزيهها، في الذات والصفات والأفعال، عن بمائلة أو مشابهة المحدثات «ليس كمثله شيء» [الشورى: ١١].. ويقول عن «التوحيد» و«الوحي» و«النبوة والرسالة» و«الإيمان» و«الغيب» و«التراث» وغيرها من مفاهيم ثوابت الدين ومصطلحاته:

إنه - أي الله - «هو الأرض.. والخبز.. والحرية.. والعدل.. والعتاد.. والعُدَّة.. وصرخات الألم.. وصيحات الشرح.. فهو تعبير أدبي أكثر منه وصفاً لواقع، وتعبير إنشائي أكثر منه وصفاً خبرياً.. ولذلك، وجب التخلي عن ألفاظ ومصطلحات كثيرة - في علم أصول الدين - من مثل: «الله» و«الرسول» و«الدين» و«الجنة» و«النار» و«الثواب» و«العقاب»؛ لأن هذه الألفاظ والمصطلحات قطعية؛ ولأنها تجاوزت الحس والمشاهدة... ولأنها تشير إلى مقولات غير إنسانية.. فما الله إلا وعي الإنسان بذاته.. وما صفاته وأسمائه إلا آمال الإنسان وغاياته التي يصبو إليها.. وكل

صفات الله - العلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة - كلها صفات الإنسان الكامل. وكل أسماء الله الحسنى تعنى آمال الإنسان وغاياته التي يصبو إليها.. فالحقيقة هي الإنسان، والواقع الذي يعيش فيه.. ولذلك، فتعبير: الإنسان الكامل، أكثر تعبيراً من لفظ الله..

والتوحيد ليس توحيد الذات الإلهية، كما هو الحال في علم الكلام الموروث، وإنما هو وحدة البشرية، ووحدة التاريخ، ووحدة الحقيقة، ووحدة الإنسان، ووحدة الجماعة، ووحدة الأسرة.. فالمهم هو إيجاد الدلالة المعاصرة للموضوع القديم، وتخليصه من شوائبه اللاهوتية.

فليس للعقائد صدق داخلي.. ولا يوجد دين في ذاته.. والوحي هو البناء المثالي للعالم.. والمطلوب هو تحويل الوحي إلى أيديولوجية وإلى علم إنساني.

والعلمانية هي أساس الوحي، فالوحي علماني في جوهره، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ. تظهر في لحظات تخلف المجتمعات وتوقفها عن التطور.

والتراث قضية وطنية لا دينية، ومادة التراث نسقها كلها من الحساب، ونستبدل بها مادة أخرى جديدة من واقعنا المعاصر.

والإلحاد هو التجديد، والتحول من القول إلى العمل، ومن النظر إلى السلوك، ومن الفكر إلى الواقع إنه وعى بالحاضر.. ودرء للأخطار.. بل هو المعنى الأصلي للإيمان.. والمطلوب هو الانتقال من العقل إلى الطبيعة، ومن الروح إلى المادة، ومن الله إلى العالم، ومن النفس إلى البدن، ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك.. ومن العقيدة إلى الثورة<sup>(٢٦)!!</sup>

هكذا بلغ «التأويل - العيش» الذروة - إن لم يكن قد تجاوزها! فكل ثوابت الإسلام، وجميع عقائده، ومضامين مصطلحاته - من الله - إلى الرسول.. إلى الدين.. إلى الجنة.. إلى النار.. إلى الثواب والعقاب - قد جردت من محتواها الديني - «فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعاني» كما قال الحداثيون الغربيون! وانقلبت مصطلحات الدين وعقائده الثوابت إلى هذا العبث الحداثي اللا معقول!



● ونموذج ثان، لحدائي آخر، من الذين اتخذوا الدراسات الإسلامية ميداناً لهذا التأويل العبثي.. يقول - عن القرآن الكريم - الذي يؤمن المؤمنون - كل المؤمنين - أنه وحى سماوى، وتنزيل إلهى معجز وخالد.. يقول هذا الحدائي - عن القرآن -: إنه نص بشري، ومُنتج ثقافى.. لا قداسة له! وأن بينه وبين الشعر الجاهلى - وخاصة شعر الصعاليك - شبهاً كبيراً! وينص عباراته - التى لا تحتاج إلى تعليق - يقول:

«من الواقع تكون النص [القرآن]، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، فالواقع هو الذى أنتج النص.. الواقع أولاً، والواقع ثانياً، والواقع أخيراً.

لقد تشكل القرآن من خلال ثقافة شفاهية.. وهذه الثقافة هى الفاعل، والنص منفعل ومفعول.. فالنص القرآنى فى حقيقته وجوهره منتج ثقافى. والمقصود بذلك أنه تشكل فى الواقع والثقافة فترة تزيد على العشرين عاماً.. فهو ديكالكتيك صاعد وليس ديكالكتيكاً هابطاً.. والإيمان بوجود ميتا فيزيقى سابق للنص يطمس هذه الحقيقة.. والفكر الرجعى فى تيار الثقافة العربية هو الذى يحول النص من نص لغوى إلى شىء له قداسته..

والنص القرآنى منظومة من مجموعة من النصوص، وهو يتشابه فى تركيبته تلك مع النص الشعرى. كما هو واضح من الملاحظات الجاهلية مثلاً، والفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل فى المدى الزمنى الذى استغرقه تكون النص القرآنى.. فهناك عناصر تشابه بين النص القرآنى ونصوص الثقافة عامة، وبينه وبين النص الشعرى بصفة خاصة.. وسياق مخاطبة النساء فى القرآن، المغاير لسياق مخاطبة الرجال، هو انحياز منه لنصوص الصعاليك!»

هذا عن القرآن.. أما عن «النبوة والرسالة» و«الوحى».. فإتها - عند هذا الحدائي الماركسى -: ظواهر إنسانية، وثمر «لقوة المخيلة» الإنسانية، وليس فيها إعجاز ولا مفارقة للواقع وقوانينه.. فالأنبياء، مثل الشعراء والمتصوفة، مع فارق فى درجة «المخيلة»، فقط لا غير.. وينص عباراته:

«إن الأنبياء والشعراء والعارفين قادرون دون غيرهم على استخدام قاعلية «المخيلة» فى اليقظة والنوم على السواء.. ومن حيث قدرة «المخيلة» وفعاليتها.



فالنبي يأتي على رأس قمة الترتيب، يليه الصوفي العارف، ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب.

وتفسير النبوة اعتماداً على مفهوم «الخيال» معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية، التي تكون في «الأنبياء» أقوى منها عند سواهم من البشر.. إنها حالة من حالات الفاعلية الخلاقة، فالنبوة، في ظل هذا التصور، لا تكون ظاهرة مفارقة.. وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحي لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع، أو تمثل وثباً عليه وتجاوزاً لقوانينه، بل كانت جزءاً من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها»!<sup>(٣)</sup>

وبعد تحويل القرآن إلى نص بشري.. والوحي والنبوة إلى قوة في «المخيلة» الإنسانية.. يذهب هذا الحدائي الماركسي إلى تطبيق «التاريخية والتاريخانية» على معان ومضامين وأحكام القرآن - كل معانيه ومضامينه وأحكامه - من العقائد إلى الأحكام وحتى القيم والأخلاق والتخصص - الأمر الذي يعني نسخ كل مضامين القرآن وتجاوزها.. فيقول:

«... فالقرآن خطاب تاريخي، لا يتضمن معنى مفارقاً جوهرياً ثابتاً.. وليس ثمة عناصر جوهريّة ثابتة في النصوص... فالقرآن قد تحول من لحظة نزوله من كونه [نصاً إلهياً] وصار فهماً [نصاً إنسانياً]. لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل.

وهذه التاريخية تنطبق على النصوص التشريعية، وعلى نصوص العقائد والتخصص.. وهي تحرك دلالة النصوص ونقلها في الغالب من الحقيقة إلى المجاز..»<sup>(٤)</sup>!

هكذا، تم العبث الحدائي بالثوابت والمقديسات - القرآن، والنبوة والرسالة والوحي - على هذا النحو اللا معقول!.\*

\*\*\*

● ونموذج ثالث، لشاعر حدائي - يسمونه «الشاعر الكبير» - بدأ عزوبياً، وانتهى فرنكفونياً، في بلد ليس لها تاريخ في الفرنكفونية! أي أنه فرنكفولي بالهوية والهوى! ولقد احترق - في كتاباته الصحفية، التي غلبت شعرة - الدعوة إلى!

• تعبير الأثنى بالجسد - أي جعل الجسد الأثنى العارى «الموديل» هو الملهم للرسامين والنحاتين والمصورين والأدباء - ففصاحة الجسد الأثنى العارى - عنده - لا تعادلها فصاحة أخرى! وهو يسحب هذه الدعوة حتى على جسد آدم وخواء، عليهما السلام!

• والدعوة إلى احتقار العربية - لغة القرآن الكريم - وذلك عندما يدافع عن وصف لويس عوض لهذه اللغة الوطنية والقومية بأنها: «لغة ميتة» . ودخيلة!! .

• والدعوة إلى الاحتفاء والاحتفال بالإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق م] بتزيين سيادتنا بتماثيله - وهو الذي افتتح مرحلة غزو الغرب للشرق، والقهر الحضارى لثقافات الشرق ولغاته ودياناته، عشرة قرون، لم تنقش ظلماتها إلا بالفتوحات التحريرية التي قادها الإسلام والمسلمون.

• والمشاركة فى الاحتفال - عامين كاملين - بالاحتلال، بدلاً من الاستقلال - الاحتفال بمرور قرنين على غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] لمصر [١٢١٣ - ١٢١٦ هـ ١٧٩٨ - ١٨٠١ م] وإحراقه مئات القرى المصرية، وإبادته لسبع تعداد الشعب المصرى، وتحويله الأزهر الشريف إلى إصطبل للخيل! عرق الفرنسيون فيه القرآن الكريم، وتراث العلوم الإسلامية . بل وبألوا وتغوطوا فيه!

• والتحدى لمشاعر الأمة، الوطنية والقومية والإسلامية والإنسانية، عندما غضبت كل الأمة من الوحشية الصهيونية التى استخدمت كل أسلحة الدمار الثقيلة، والمحرمة دولياً، ضد أطفال وشباب ونساء وشيوخ انتفاضة الأقصى المبارك والقدس الشريف والاستقلال الفلسطينى - التى تفجرت فى ٢٨ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م - فكتب هذا الشاعر الحدائى داعياً إلى حب الجنود الصهاينة الذين أطلقوا الرصاص على الطفل الفلسطينى الأعزل - محمد الدرة - لمدة خمس وأربعين دقيقة!! .

فالكراهية - فى عرف هذا الشاعر الحدائى - يجب أن تقف عند «القتل» ولا تتعداه إلى القاتل<sup>(٤)</sup>!! .

ولست أدري - ولا المنجم يدري - هل يمكن كراهة الزنا، مع حب الزناة؟! وكراهة السرقة، مع حب النصوص؟! وكراهة «الشيطنة» مع حب الشياطين؟! .

وهل يمكن أن نقيم العدالة والقصاص على الجريمة، مع الحب وإطلاق السراح للمجرمين؟! .

• ولقد توج هذا الشاعر الحدائي مسلسل القطيعة مع ثوابت الأمة، عندما سئل عن رأيه فيما:

«لو اضطدم المبدع الشاعر بما هو مقدس؟».

فإذا به - بعد أن أعلن «تقديسه لقيمة العقل وقيمة الحرية» يعلن رفضه لوجود «المقدس الديني» من الأصل والأساس! . . فهذا الذي يسمونه «مقدساً دينياً»، ليس أكثر من اختراع نخترعه نحن، وادعاء ندعيه.. ونص عبارته - في الإجابة على هذا السؤال - يقول:

«إن المقدس ليس كائنًا خارج الشعر، أو خارج الإنسان.. المقدس هو مقدس لأننا نقده.. والشاعر يفترض أنه قد غلبته النشوة، أو روح السخرية، أو الجحود، كل هذه المشاعر وكل هذه الحالات تصادف الإنسان، وتصادف الشاعر، ماذا يصنع في هذه الحالة؟ نحن نتوقع دائماً من الشاعر أن يكتب بلغة تؤدي ما يريد أن يؤديه، لكن نظل محافظة على ما يجب لها من جمال»<sup>(٦٧)</sup>!.

فالمقدس - بإطلاق - عند هذا الشاعر الحدائي القرنكفوني - هو «العقل» و«الحرية».. أما المقدس الديني فهو اختراع يخترعه من يؤمن به، ولا وجود له في الواقع والحقيقة.. والسخرية من هذا المقدس الديني، والجحود له، في لحظات «النشوة» و«الإبداع» أمر مطلوب، طالما كانت العبارة التي نعبّر بها عن هذه السخرية وهذا الجحود، جميلة.. فقط لا غير!!.

هكذا تعاملت وتعامل حدائة القطيعة المعرفية مع الموروث، مع المقدس الديني، وثوابت القيم، وما أجمعت واجتمعت عليه الفطر السليمة من مشاعر وحقائق تتعلق بالتراث وبالتاريخ!

\*\*\*

• أما النموذج الرابع لحدائة القطيعة مع قيم الأمة ومعايير الحلال والحرام التي جاء بها دينها، وتجنست عادات وأعرافاً في حياتها.. فهو «فنان كبير»، احترف



رسم الجسد العارى للنساء. . وللنساء المخدمات، اللاتي يكتسبن من حرفة «الموديل»، واللاتي يخجلن من هذه الحرفة، فيكتمن ممارستهن لها حتى عن زميلاتهن فيها. . لأنها - حتى في عرفهن - «نخاسة حدثية»، يعن فيها الخسمة والكرامة والكبرياء والخصوصية لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء!

وفي حديث صحفي مع هذا «الفنان الكبير» نشرته مجلة أدبية شهيرة - كجزء من كتاب تحت الطبع - يصدر عن هذا «الفنان»، تحدث عن واحدة من النساء «الموديل». . تلك التي رسم جسدها العارى ثلاثمائة لوحة، وهي ترقص - بعد أن «سطلها» بالحشيش، وأنسكرها بزجاجة «البولانكي» الرخيص! . . يتحدث هذا «الفنان» الكبير عن «تجربته الفنية» مع الجسد الأنثوي العارى، فيقول - عن «فنية»، التي «جنَّ بجسدها العارى، حين شاهده، إلى حد تخصيص معرض كامل لها هو معرض [الراقصة] أوائل الثمانينيات. . وكيف أحضر لها «قرش الحشيش» وزجاجة «البولانكي» الرخيص، لتسكر حتى الصباح بينما يدير اسطوانة [يا مسهرني] لسيد مكاوي، لترقص على إيقاعها طول الليل!». .

ثم يستطرد في الحديث عن «تجربته الفنية» هذه، فيقول:

«كانت جميلة، أطرافها طويلة، وجسمها طويل. لقد أضافت إلى خطوطي الكثير. . منحنتي معرض [الراقصة]، ومنحنتي القدرة على رسم «الإسكتش» السريع [٣٠٠ سكتش] كنت أرسم بسرعة جنونية على أوراق «الكلك» حتى لاحق حركة جسدها مع إيقاع الموسيقى. . ومنحنتي حساسية خاصة في التعامل مع الإيقاع، ومنحنتي أيضاً صدقاً وإخلاصاً نادراً. . وأظن أن هذا التجاوب شرط مهم لمستوى اللوحة، وحتى لا أضطر إلى المزيد من الإغراءات من فلوس وتودد وغواية!». .

وحتى لا يظن أحد أن هذا «الفنان الكبير» قد صنع ويصنع ذلك من باب «الضرورات التي تبيح المحظورات» - مع التنبيه على أننا لسنا هنا بإزاء «ضرورة». . ولا «حاجة» بل ولا حتى أمراً من «التحسينات» - إذ الكارثة أن هذا الفنان الحدائي الكبير يمارس هذه «النخاسة الفنية» باعتبارها الأمر الطبيعي. . ويتحدث عن حقبة

السبعينيات - من القرن العشرين - تلك التي ضغطت فيها موجة التدين والصحة الإسلامية على كليات الفنون الجميلة حتى ألغت نظام «الموديل العارى» فى تلك الكليات. . يتحدث عن هذه الحقبة باعتبارها (الزمن الأهبل) ! لأن الجسد الأنثوى العارى - ينظر هذه الحداثة - ليس فقط كلاً مباحاً ومستباحاً، وإنما هو - كما يقول - أقدم معبود عبده الإنسان. . وأطول المعبودات التى عبدها هذا الإنسان فى العمر والتاريخ !.

نعم، يعلن هذا «الفنان» عن هذه «العقائد الحداثية» لهذا «الدين الحداثى» فيقول :

«لقد خلقنا الله فى أحسن تكوين، ولهذا تكون النسب الصحيحة عارية بالضرورة.. بل ولا تكون صحيحة إلا عارية، ولا يمكن أن يتم تجريد سليم دون عرى.

تلك حقيقة أساسية فى الفن، لكن الشرط الاجتماعى القائم لا يسمح بعرض اللوحات العارية (زمن أهبل) !.. إن جسد المرأة هو أقدم عبادة عرفها الإنسان. وأعظم ديانة منذ عرفت الأديان. إن «أفروديت»<sup>(٧)</sup> الطالعة من زبد البحر، عبت ٢٠ ألف سنة، أكثر من كل الديانات السماوية..»!!<sup>(٨)</sup>

وهكذا. . فلا اعتبار لما تقبره الأديان - كل الأديان - من أن البشرية - التى بدأت بآدم، عليه السلام - قد بدأت - قبل الانحرافات الوثنية - بعبادة الله، سبحانه وتعالى. . لأن «الحداثة» - التى أصبحت «ديناً» للمحدثين - قد جعلت الجسد الأنثوى العارى أقدم المعبودات، لأقدم الديانات. . وأطول الديانات عمراً فى التاريخ !.

تلك نماذج - مجرد نماذج - للأفكار والآداب والفنون الحداثية، التى أقامت قطيعة معرفية كبرى مع موروث الأمة. . ومع مسروقاتها الدينى - عقيدة وشريعة وقيما - على وجه الخصوص.



## • الهوامش

- (١) إميل يولا: [الحرية، العلمنة: حرب شطرى فرنسا ومبدأ العدالة] منشورات سيرف، باريس سنة ١٩٨٧م - نقلاً عن: هاشم صالح - مجلة [الوحدة] - الرباط - المغرب - عدد: فبراير - مارس سنة ١٩٩٢م ص ٢٠، ٢١.
- (٢) د. حسن حنفي [التراث والتجديد] ص ١٢٨، ١٣٠، ١٢٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤ - ١٤٦، ١٥٣، ١٥٤، ١٨٥، ١٧٦، ١٧٧، ٦٦، ٢٢، ١١٤، ٢٠٣، ٢٠٨، ٦٩، ٢١، ١٧٣، ٦٧، ٦١. طبعة القاهرة سنة ١٩٨١م.
- (٣) د. نصر حامد أبو زيد [مفهوم النص] ص ٥٦، ٣٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.
- (٤) د. نصر حامد أبو زيد [نقد الخطاب الدينى] ص ٨٣، ٩٤، ٨٢ - ٨٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.
- (٥) أحمد عبد المعطى حجازى: «سوف أكون صريحاً مع الجميع» [الأهرام] ص ٢٨ فى ١١ - ١٠ - سنة ٢٠٠٠م.
- (٦) أحمد عبد المعطى حجازى - من حوار معه «أخبار الكتاب» العدد ٣٧ - سبتمبر سنة ٢٠٠٠م - اتحاد كتاب مصر - القاهرة.
- (٧) أفروديت، هى إلهة الجمال والحب فى الأساطير الوثنية الإغريقية. . ولقد كذب هذا الفنان عندما عظم عبادة أفروديت على الإنسانية، زاعماً أن ذلك قد استمر عشرين ألف سنة. . وكان تاريخ الإنسانية هو هذه «اللحظة الأسطورية الإغريقية» وحدها.
- (٨) من حديث أجرته عبلة الرويتى، مع الفنان حسن سليمان - مجلة «أخبار الأدب» - القاهرة - العدد ٣٦٦ فى ١٦ - ٧ - سنة ٢٠٠٠م.





## رفض التجديد الإسلامى للحدائثة الغربية

بقى أن ننبه، فى ختام هذه الدراسة، على وعى المجددين الإسلاميين - منذ فجر الاحتكاك الحضارى بين أمتنا الإسلامية والحضارة الغربية - وعيهم بالطبيعة «الدهرية - اللادينية» لهذه الثقافة الحدائثة، وبالقطيعة المعرفية التى تقيمها هذه الحدائثة مع الموروث الدينى . . . وتصدى هؤلاء المجددين لهذه الثقافة الحدائثة اللادينية، منذ بواكير تسللها إلى بلادنا، أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، فى ركاب الغزوة الأوروبية لوطن العروبة وعالم الإسلام.

● لقد رأى الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ - ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م] هذه الحدائثة، التى وفدت مع الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣ - ١٢١٦ هـ - ١٧٩٨ - ١٨٠١ م]، وآها «دهرية» لا علاقة لها بأى دين من الأديان، وذلك عندما سخر من دعوى «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] وحملته الفرنسية اعتناقهم دين الإسلام، فقال الجبرتى:

«إن إسلامهم نَصَب.. فلقد خالفوا النصارى والمسلمين، ولم يتمسكوا من الأديان بدين، وهم دهرية معطلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون»<sup>(١)</sup>.

فلم يكشف زيف دعواهم اعتناق الإسلام، بالقول إنهم لا يزالون على نصرانيتهم، وإنما نفذت بصيرته إلى الطبيعة اللادينية والدهرية للفلسفة الوضعية التى تأسست عليها الحدائثة التى جاءوا بها، والتى اعتمدتها الثورة الفرنسية بديلاً للدين واللاهوت.

● وكذلك فعل رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ - ١٨٠١ - ١٨٧٣ م] الذى خبر ثقافة الحدائثة الأوروبية بباريس: «قرأها دنيوية طبيعية لا دينية، يعيشها أهل

باريس، الذين - كما قال - : «ليس لهم من دين النصرانية إلا الاسم فقط.. فهم إباحيون، يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك لا يصدقون بشيء مما في كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية.. ولهم في الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.. وإن كانت بلادهم من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.. علوم التمدن المدني».

ولتميز الطهطاوى بين براعة الفرنسيين في العلوم الكونية - علوم المادة.. والتمدن المدني - وبين ضلال الفلسفة الوضعية عن السبيل الإيمانية، وخص هذه المعادلة في بيتين من الشعر، قال فيهما:

أوجد مثل باريس ديار      شمس العلم فيها لا تغيب  
وليل الكفر ليس له صباح      أما هذا وحقكم عجيب

● وكذلك فعل جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] الذى رأى هذه الفلسفة الوضعية اللادينية، - التى مهدت لثورة الفرنسية، بفلسفة الأنوار وموسوعتها، - التى اعتمدتها الثورة الفرنسية «دينًا طبيعيًا» محل «الدين الإلهي» - رآها الأفغانى مذهبًا للذة الحسية، يبعث من جديد مذهب «أبيقور» الكلى [٣٤١ - ٢٧٠ ق م] مذهب اللذة والدهرية - على أيدي فلاسفة التنوير الوضعى اللادينى، من أمثال «فولتير» [١٧٣٤ - ١٧٧٨ م] و«روسو» [١٧١٢ - ١٧٧٨ م] اللذين - كما يقول الأفغانى - «يزعمان حماية العدل، ومغالبة الظلم، والقيام بإنارة الأفكار، وهداية العقول، فبشا قبر أبيقور الكلى، وأحياء ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف دينى، وغرسا بذور الإباحية والاشتراكية وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى.. وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع كل عقيرته بالتنصيص على الأنبياء [برأهم الله مما قالوا] وكثيراً ما ألف «فولتير» من الكتب فى تخطئة الأنبياء والسخرية بهم والقذح فى أنسابهم وعيب ما جاءوا به، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنسيين، ونالت من عقولهم، فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم.. وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة [فى زعمهم]، شريعة الطبيعة»<sup>(٣)</sup>.

هكذا كشف الفيلسوف جمال الدين الأفغاني أضاليل الفلسفة الوضعية الأوروبية، والتنوير العلماني اللاديني، والآثار المدمرة لهذه الدهرية الخيوانية، التي وقفت بالإنسان عند الطبيعة والمادة، فعزلته عن الروح الإنهية، وأنعمت الربانية، والرعاية السماوية. كشف الأفغاني الأساس الفلسفي لثقافة الحداثة هذا الكشف العميق والعميق والشجاع - في عصر كانت الدنيا تتعبد في محاريب الثورة الفرنسية وفلسفتها وثقافتها! وبهذا الإيجاز الفلسفي البليغ.

● وعندما قامت في بلادنا - بواسطة المثقفين الموارنة، الذين صيغت عقولهم وثقافتهم في مدارس الإرساليات الفرنسية - مؤسسات ثقافية وصحف ومجلات احترفت التبشير بثقافة الحداثة الغربية - وفي مقدمتها مجلة [المقتطف] ١٢٩٣ - ١٣٧١ هـ [١٨٨٩ - ١٩٥٢ م] التي أخذت تسرب هذه الحداثة اللادينية تحت لافتات «العلم» و«النظريات العلمية»، كشف المجدد المجتهد «عبد الله النديم» [١٢٦١ - ١٣١٣ هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م] الطابع الإلحادي لهذه الثقافة الحداثية، وتحدث عن هذا الفريق من كتاب [المقتطف]، واصفاً يياهم بأنهم: «أعداء الله وأنبيائه». والأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الخالق.. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها الأديان»<sup>١٢٤</sup>.

● ولقد ظل هذا الموقف الواعي بمادية ودهرية ولا دينية ثقافة الحداثة الغربية، مميزاً لعلماء الأمة ومفكريها، منذ عصر الجبرتي.. وحتى يومنا هذا، فوجدنا الدكتور محمد خاتمي يرصد الخصيصة المميزة لثقافة الحداثة الغربية عن ثقافتنا الإسلامية، وعن ثقافة أوروبا ما قبل التنوير الأوروبي، فيرى أن هذه الخصيصة هي، أولاً وقبل كل شيء، ذلك الانقلاب الذي جعل ثقافة الحداثة تتمحور حول «الإنسان»، بعد أن كانت الثقافة تتمحور حول «الله».. فلقد غدا الإنسان الطبيعي، المبتوت الصلة بالله والدين والسما، هو محور الحداثة الأوروبية وثقافتها.. «فالحداثة لفظ يراد به التحولات التي جرت في الغرب في العصر الأخير من تاريخ الإنسان، وبالتالي يمكن القول، بتعبير أدق، إن الحداثة هي الثقافة

التي تتمحور حول الإنسان، في مقابل ثقافتنا التي تتمحور حول الله.. فالحدثاء هي روح الحضارة الغربية، المنسجمة معها، والمختلفة والمتباينة مع ثقافتنا الإسلامية، ومع ثقافة الغرب القروسطية.

لقد كانت ثقافة العالم الإسلامي وثقافة الغرب القروسطية، على نحو ما، نوعي جنس واحد، إن لم نقل إنهما صنفان لنوع واحد، وكان أبرز وجوه الشبه بينهما هو محورية الله في فكر الإنسان واعتقاده وفي نظامه الفكري والأخلاقي والعاطفي.. ولقد حارب الغرب ثقافته القروسطية هذه، وكان من نتيجة حربه عليها ظهور حضارته الحديثة وثقافته الحديثة، التي تبوأ الإنسان سدة المحورية فيها.. فكان ذلك التحول - من محورية الله إلى محورية الإنسان - أبرز وجوه الاختلاف بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين ثقافة الغرب وحضارته الحديثة..<sup>(٥٥)</sup>

● وإذا كنا قد سبق وأوردنا الاعتراف الصريح لأنصار الحدثاء ودعاتها، بأن مقصدها وغايتها ومعناها هو إحلال «نظام الطبيعة بدلاً من نظام النعمة الإلهية» وإحلال «هيمنة العقل بدلاً من ملكة الله» وجعل «الإنسان وحده المقياس للإنسان».. فلقد كان شجاعاً - والشجاعة تحمد حتى من الخصوم الفكريين! - ذلك الحدثاء - الذي يتجاوز الآن «الحدثاء» إلى عبثية وتفكيك وعدمية ولا أدوية «ما بعد الحدثاء» - عندما استخدم منهاج «شُتعت فوضحت!»، في وصفه الموجز لهذه الحدثاء فقال:

«إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون»<sup>(٥٦)</sup>!!

نعم!.. هكذا تحدث الحدثائون عن الذات الإلهية.. تعالى الله عن ما به يتحدثون!..

\*\*\*

تلك هي «الحدثاء الغربية».. وهذا هو «التجديد الإسلامي».. وتلك نماذج من مقولات المجددين من علماء الإسلام.. ومن مقولات الحدثائين، الذين «امتهنوا» الإسلاميات منهم.. والذين «امتهنوا» الآداب والفنون.



وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْشِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٦، ٣٧]

و ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْتَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

\*\*\*

### • الهوامش

- (١) [مظهر التقديس يزوال دولة الفرنسيين] ص ٣٤ تحقيق: حسن محمد جوهري، عمر الدسوقي طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م
- (٢) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج ٢ ص ١٥٩، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.
- (٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٦١، ١٦٢.
- (٤) مجلة [الأسناد] - القاهرة - العدد ٣٩ - ص ٩٢٣، ٩٢٤ في ٧ ذي القعدة سنة - ١٣١١هـ مايو سنة ١٨٩٣م.
- (٥) د. محمد خاتمي [الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية] ص ٤١ - ٤٩. طبعة القاهرة - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩م.
- (٦) د. علي حرب «مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف ريتون وأشباه أركون» صحيفة [الحياة] - لندن - في ١٨ - ١١ - سنة ١٩٩٦م.

\*\*\*



## المراجع

- ابن القيم : [إعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.
- أحمد عبد المعطي حجازي: مقال: «سوف أكون صريحاً مع الجميع» - [الأهرام] في ١١ - ١٠ - ٢٠٠٠ م.
- : حوار: نشرة [اتحاد الكتاب] - القاهرة - عدد ٣٧ - سبتمبر سنة ٢٠٠٠ م.
- الأفغاني (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
- إميل بولا : [الحرية، العلمنة: حرب شطرى فرنسا ومبدأ العدالة] طبعة باريس - منشورات سيرف سنة ١٩٨٧ م.
- الجبرتي (عبد الرحمن) : [مظهر التقديس يزوال دولة الفرنسيين] تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م.
- د. حسن حنفي : [التراث والتجديد] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م.
- حسن سليمان : حوار مع عبلة الرويشي - مجلة [أخبار الأدب] - القاهرة - عدد ٣٦٦ في ١٦ - ٧ - سنة ٢٠٠٠ م.
- الطهطاوى (رفاعة رافع) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.
- عبد الله النديم : مجلة [الأستاذ] - عدد ٣٩ - القاهرة في ٧ ذى القعدة سنة ١٣١٠ - مايو سنة ١٨٩٣ م.

- د. علي حرب : مقال «مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشجار أركون» صحيفة [الحياة] - لندن - في ١٨ - ١١ - سنة ١٩٩٦ م.
- د. محمد خاتمي : [الدين والتراث والحداثة والتنمية والحريّة] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩ م.
- محمد عبده (الأستاذ الإمام) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م.
- المودودي (أبو الأعلى) : [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] طبعة بيروت - مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٥ هـ سنة ١٩٧٥ م.
- د. نصر حامد أبو زيد : [مفهوم النص] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م.
- : [نقد الخطاب الديني] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م.
- هاشم صالح : مجلة [الوحدة] - الرباط - عدد فبراير - مارس سنة ١٩٩٢ م.

\*\*\*



## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
التجديد: هو التحقيق لاكتمال الدين	١٣
من معالم المشروع الحضارى لمدرسة الإحياء والتجديد	١٩
نماذج حداثة للقطيعة مع الموروث	٢٧
رفض التجديد الإسلامى للحدائثة الغربية	٣٧
المراجع	٤٣

\*\*\*

رقم الإيداع ١٦٧١ / ٢٠٠٣

دار الناصر للطباعة والإستيلامية  
٢ - شارع منشأ على شارع القمامة  
ت : ٥٧٨٧٩١٨ - ٥٧٩٩٩٤٢  
الرقم البريدي : ١١٢٣١

الشروق — EL Shorouk



6221102900713

L.E 4.000

مستقبل بين الحظوظ